الباحث السوداني الدكتور عبده مختار موسى

مسألة الجنوب ومهددات الوحدة في السودان

مشكلة جنوب السودان تفاقمت ضمن عوامل متعددة بسبب عجز النخبة السودانية عن تحقيق الانسجام بين مكونات المجتمع السوداني

في مسألة جنوب السودان واقعة لأزمة الحكم العربي الغارق في تناحرات السلطة والأطراف الاخرى، حيث لم تعد قضية إعادة صياغة مفهوم الدولة الوطنية تقف عند قضايا حقوق المواطنة، بل هي حالة لازمة من العنف والقهر الذي يصل إلى حد الابادة ومحو المغاير وجعل ساحة الوطن مسافة ما بين السجن ومركزية الدولة.

ان ما طرح قضية جنوب السودان وحولها إلى دولة هو عجز الوعي السياسي في قلب الدولة السودانية في الخروج من عقلية لا ترى في المشهد السياسي سوى صورة واحدة لمعنى العلاقة بين القيادة والمواطن.

في اشكالية مثل هذه تنحصر درجة الرؤية عند زاوية من القصور وتصاب أدوات العمل لديها بشلل لا يخرجها من حصار الذاتية.

نجمي عبدالمجيد

هنا تصاعد كل عوامل التكسرات والتناحر وقوة الحرب ـ المواجهة إلى سدة التحدي لتضرب ما فرض على الواقع من قمع وارهاب تحت اكذوبة الوطن الواحد؛ لتظهر لنا حالات الانقسامات الداخلية حيث تصبح الهويات المتعددة مشاريع تحويل نحو حروب تلعب فيها مراكز قوى متعددة تمزق هذا الكيان الذي لم يعد يملك مقدرة السيطرة، بل اصبح يترنح عاجزاً عن استعادة هيبة الدولة المركزية حيث تذهب الأمور إلى وضع خرائط جديدة تسير في التدرج إلى الغاء الجغرافيا السابقة وتحولها إلى حقوق دويلات وشعوب وأديان ومذاهب واعراق، وفي جنوب السودان لعبت كل الأهواء حتى تمكن هذا الجزء من السودان أن يكون هو الخطوة الأولى نحو ظهور دول اخرى في هذا البلد الذي لعبت فيه السياسة البريطانية منذ عام الاحتلال وحتى الراهن.

يقدم لنا الدكتور عبده مختار موسى في كتابه هذا قراءة لوقع سقوط الدولة الوطنية في السودان والتي لا تقف حدود عواصفها عند هذا البلد، بل هي تجرف عدة دول عربية سوقت أكاذيب العدل والمواطنة والحرية ولكن حكمت بالنار والحديد حتى جاء حين دمارها ودخول شعوبها في محرقة الحروب الأهلية والذهاب بها نحو التشرذم.

يقول الكاتب: (عند ذكر مسألة جنوب السودان ـ أو علاقات الجنوب بالشمال في السودان ـ يتبادر إلى الذهن مجتمع سوداني غير منسجم وفي غاية التعقيد والتعدد وعندما يطال التعدد الجوانب الثقافية والدينية والعرقية يكون في الغالب الناتج هو مجتمع غير متجانس. مجتمع بهذا التوصيف يحتاج إلى عملية (استجناس) أو (هرمنة) لتحويل هذه الفسيفساء الثقافية الاثنية إلى تنوع يثري وحدة مستدامة يكون قوامها بناء اجتماعي متماسك. هذا هو دور الباحث والمثقف ووسائل الاعلام والنخب أكثر من كونه مسؤولية السياسي.

ربما يصدق القول ان مشكلة جنوب السودان قد تفاقمت ضمن عوامل اخرى بسبب عجز النخبة السودانية عن تحقيق الانسجام بين مكونات المجتمع السوداني.

ولأسباب تاريخية وعوامل موضوعية ـ يشير إليها هذا البحث بالتفصيل - ظهرت أزمة ثقة بين الطرفين على مستوى النخبة السياسية.

ثم استعصت المشكلة وتفاقمت الأزمة بسبب نوع المنهج الذي تعاملت معه النخبة السياسية الحاكمة الشمالية مع هذه المسألة .. هذا المنهج ارتبط بالعقلية التي تعاملت مع المشكلة منذ بدايات تمظهرها في شكل تمرد في خمسينيات القرن العشرين فركزت تلك العقلية على الحل العسكري في فترة الفريق ابراهيم عبود (1958 ـ 1964م)، ثم انتقلت إلى الحل السياسي فترة حكومة أيار ـ مايو 1969م ـ 1985م وفترة الانقاذ منذ عام 1989م، وهو منهج افض،ل ولكن ذلك اطال أمد الحرب من هدنة إلى هدنة، ومن مفاوضات إلى اخرى. ولم تتمكن النخبة الشمالية من التوصل إلى اتفاق مع النخبة الجنوبية إلا بعد ان استوعبت أهمية الابعاد الاخرى في المشكلة: البعد الاقتصادي ـ الاجتماعي وما يرتبط به من اعتراف بالظلم الاقتصادي والتهميش السياسي، ثم البعد الخاص ببناء الثقة ـ وهو الأصعب في مرحلة الانتقال ـ ويشكل أحد العوامل الأهم في عملية تشكيل مستقبل السودان.

هذا البعد الأخير يرتبط به بعد نفسي تشكل بتراكمات تاريخية وتعزز بسياسات استعمارية، الأمر الذي اضفى على المشكلة ـ أو علاقة الجنوب بالشمال ـ المزيد من التعقيد والتأزيم).

ما يرسم هنا على واقع السودان، له في قيام الدولة الجمهورية في بلاد العرب أكثر من صورة، حيث هوت طموحات الشعوب إلى قاع القهر السلطوي، وتحولت رهانات الاستقلال إلى شكل جديد للاستعمار الداخلي ـ الوطني.

فكان فرز وتقسيم مراكز النفوذ في الدولة حسب الانتماء المناطقي والمذهبي والقبلي وغيرها مما جعل الدولة في حالات من التصدع العميق في كيانها وانحدرت نحو الانقلابات والتحالفات الخارجية واعادة صناعة المواقف في كل دورات العنف حتى اغلقت منافذ الخروج نحو أي حلول تعطي لكل طرف شعور الصلة مع وطن هو حق للجميع، وحين تدخل الأمة في هوة تمزق الهوية الواحدة فإنها من جزئيات تشرذمها تخلق هويات متناحرة وعقائد قاتلة، وتصبح قوة السلاح هي المنطق الصانع للخلاص، وهذا ما نجده اليوم في السودان من حرب مدمرة ليست لها من نهاية، والسبب عجز الدولة الجمهورية عن بناء دولة المؤسسات الوطنية؛ لان السلطة القهرية لا ترى في الدولة سوى قوى تقهر كل من يخالف تمركز فردية الحكم لديها.

مسألة جنوب السودان بكل ما حملت، ذهبت في النهاية نحو قيام دولة مستقلة ذات سيادة، لكن القضية هنا ليست في الحق السياسي بل في امكانية قيام دولة تخرج من دول عرفت على طول التاريخ بعدم قدرتها على صنع أرضية مشتركة يلتقي عليها كل طرف، فهي هنا تقبع في اطار الجغرافيا المتصدعة غير القادرة على وحدة المصير، وفي جوهر هذا التشرذم تطرح كل فئة مشروعها الذاتي الذي يصبح قوة سياسية بعد ما تكتمل فيه كل معالم رفض ومهاجمة الآخر الذي يحتل منزلة العدو المحتل الذي لا يحق التخاطب معه إلا عبر القتال.

هذا ما نجده اليوم في دول مثل العراق واليمن وسوريا وافغانستان وليبيا، وكلها ذاهبة نحو مزيد من الصراعات بعد ما سقطت كل المشاريع؛ لان العنف اصبح سيد الموقف عند كل فئة، هنا ندخل إلى نظرية تقسيم الوطن إلى مربعات متقاتلة حيث يصبح من المستحيل العودة إلى منطق الدولة الشمولية.

كذلك هناك عوامل ظلت معلقة دون حل حتى رحلت من دوائر الأزمة إلى مساحات الصراع المستديم في السودان، وكانت في الجنوب عوامل لصناعة كل ما يشطر الهوية إلى كيانات لتصبح خلايا تحريض لدورة تصاعد العدوان والعنف نحو النخبة الشمالية الحاكمة.

حول استخدام الدين في هذا الاتجاه يقول الكاتب: (ان الدينا، مثل الأيديولوجيا، يمكن أن يشكل حاضنا للهوية عندما يكون هو المرجعية في القيم والمواقف والسلوك. وكذلك الاثنية يمكن أن تكون محورا للهوية. وهي بالفعل كذلك في كثير من الدول خاصة المتخلفة، حيث ما زالت الاثنية تشكل عصب البناء الاجتماعي والانتماء السياسي إلى درجة أن النخب اصبحت تتمترس بالاثنية في كسب التأييد الشعبي والوصول إلى السلطة، واحيانا تطغى الاثنية حتى على العقيدة الدينية في التأثير في السلوك السياسي.

في الواقع السوداني، على الرغم من ان الاثنية والدين يشكلان مكونات حيوية للهوية، إلا أنه أحيانا يطغى تأثير الاثنية في الهوية خاصة الهوية السياسية. وقد طغى تأثيرها في العامل الديني عندما تم تسييس الدين ولم يعد هو يشكل المرجعية أو المظلة الاستيعابية الفاعلة، فتحركت ديناميات الهوية من منصة الدين إلى منصة الاثنية.

وهناك الكثير من الأمثلة أو الشواهد من الواقع السوداني في هذا السياق. وتزداد هذه الظاهرة كلما كانت هناك سلطة مركزية قابضة تهمش الثقافات الوطنية الأخرى او تقصي الثقافات المحلية، فتكبتها ولا تجد طريقا للتعبير عن نفسها فيكون رد الفعل انفجارا في شكل حروب أهلية او ظهور حركات متعصبة).

شكل الدين في الصراعات عبر قرون من التاريخ قوة يرتكز عليها كل طرف يجعل من السياسي مقدساً، بل يصبح الدين محصورا في النزعات الذاتية إلى حد الحق الإلهي.

عامل تسييس الدين يلعب دوراً في شحذ العقول والانفس نحو مزيد من التعصب كي ترتفع درجة المواجهات، بل يصبح المقدس هو وطن الجهاد والتكفير وجعل الآخر في منزلة الاستباحة المطلقة.

السودان هذا التنوع الاثني والثقافي والديني واللغوي والذي به حوالي 572 قبيلة، منها 50 قبيلة كبرى، وعدد اللغات 115 لغة، والجنوب السوداني هو موطن الديانة المسيحية مع وجود

استخدام عنصر الدين في الصراع استدعته أسباب استراتيجية بل جاء كرد فعل لإدخال الإنقاذ الوطني للدين كعامل في الصراع

المواجهات المسلحة بدأت بقناعة تامة أن تقرير المصير لن يتحقق إلا عن طريق البندقية

لبعض الجماعات الاسلامية والوثنية. فلم يخلُ في جوهر هذا التنافر من حضور الدين في تحديد مستوى التعامل الديني -الإسلامي في الشمال مع المسيحي في الجنوب، وهو ما فتح الشقوق الاوسع والواسعة في العلاقة بين الاطراف والمراكز مما جعل حال المواطن في الجنوب في موقع النفي والاغتراب عن اكذوبة الوطن الواحد، والتي ذهبت نحو تغريب الذات عن حقوق المواطنة وصعود التمرد ورسم خارطة مغايرة تفصل هذا الجزء من جغرافية السودان؛ ليصبح حق تقرير المصير لا يقل قداسة عن الدين، بل التحم المقدس مع السياسي إلى حد تشكل صورة واحدة في ساحات الحروب.

وفي جانبا آخر في هذا الشأن، يطرح علينا الدكتور عبده مختار موسى، وهو صاحب العديد من الكتب والدراسات في أزمات السودان، هذه النظرة التي لعبت أخطر الادوار في تصاعد الصراع بين الشمال والجنوب قائلا: (وبمثل ما اصبح جنوب السودان مشدودا إلى الأفريقانية والدين المسيحي، كذلك يتمسك الشمال بالدين الاسلامي والثقافة العربية. وإذا نظرنا إلى السودان من الناحية الانثروبولوجية نجد أنه يضم 56 مجموعة قبلية كبيرة تشمل أكثر من 500 قبيلة، تتحدث أكثر من 100 لغة. لكن اللغة العربية يتحدث بها أغلبية السكان. ويدين 70 بالمئة من السكان بالإسلام و5 بالمئة بالمسيحية و25 بالمئة يدينون بديانات افريقية مختلفة. هذه التعددية الاثنية التي تميز بها السودان دفعت بعض الباحثين إلى القول ان الشمال نفسه متماسك او مربوط بعرى الاسلام والعروبة. ولولا الدين الإسلامي واللغة العربية لأصبح شمال السودان نفسه مجزأ إلى عدة دول؛ لأن الدين واللغة هما اقوى مكونات الهوية. لذلك نجد ان الشمال على اختلاف اثنياته تجمعه الهوية العربية الاسلامية، بينما الجنوب -ايضا على اختلاف اثنياته- تربطه الهوية الافريقية الزنجية المسيحية. لذلك فإن الجنوب توحده الهوية الجنوبية تجاه او مقابل الهوية الشمالية.

ولذلك فإن الهوية هي المحرك الاساسي للصراع حول قسمة الثروة والسلطة، وان معظم الصراعات في السودان هي صراعات هويات. هذا التحليل السوسيولوجي مهم لفهم المسألة السودانية فهما صحيحا ودقيقا).

بكل هذا لم يكن غريبا على السودان ان تدخل اليوم هذه الحرب التي هي تراكمات لأزمات مفهوم قيام الدولة الوطنية منذ عهد الاستقلال عن بريطانيا عام 1956م، والدخول في دوامات الانقلابات العسكرية وسقوط المشروع الوطني.

السودان اليوم يذهب نحو التمزق إلى عدة دويلات بعد فقدان السيطرة الكاملة، وعجز اي جهة عن الامساك بمفاصل التناحر والرغبة في إحراق مقدرات كل طرف، هنا لم يعد للارضية من جامع مشترك، لا الدين ولا اللغة، حتى هذه اسباب الجذب والتوحيد تحولت إلى حقائق طرد ونفور ومواجهات. الحرب اليوم هي من تصنع خرائط الدويلات، وجغرافية السلاح هي الهوية الاهم في عرف كل فصيل يحارب. ولن يكون السودان الحالة الجانبية المنفردة في هذا الانهيار الذي يضرب عدة دول في الشرق الاوسط، بل لنا في مساحات الحروب والازمة تصاعد واسع، حيث هزات هذا التصدع تمتد إلى دول كنا نظن أنها بعيدة عن هذا الاحتراق بما لها من مقومات الاقتصاد والسلطة. لكنها دخلت في صراع المذهبية والطائفية والعودة بقوة إلى الانتماءات الذاتية بعد سقوط الهوية الوطنية.

إنه الشرق الاوسط الجديد، تمزيق ما تمزق من أمة الاسلام، وتناحر شعوبها، حيث يصبح كسر ارضية التماسك برامج العمل السياسي لأن كل ما يدفع نحو هذا الاتجاه قد تمكن في كيان الفرد والجماعة، وكلما توسعت مسافات تحرك السلاح تغلق كل آفاق الحلول السياسية بل تصبح في منزلة الخيانة إن ذهب إليها طرف.

الإخوة أصحاب الأعمال.. الالتزام بسداد الاشتراكات التأمينية أولاً بأول إلى المؤسسة يجنبكم المساءلة القانونية وتراكم الغرامات